

دلالة أسماء الشخصيات في رواية "حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر"

د. بوقرومة حكيمة
جامعة المسيلة

يسعى الروائي حين يضع الأسماء لشخصياته أن تكون متناسبة ومنسجمة، بحيث تحقق للنص مقرونيته وللشخصية احتماليته ووجودها، وهذا ما يؤدي إلى تنوع واختلاف أسماء الشخصيات الروائية، وإن المقصدية التي تضبط اختيار المؤلف للاسم الشخصية لا تكون دائما بدون خلفية نظرية، ولا تنفي القاعدة اللسانية حول اعتباطية العلامة، فالاسم الشخصي علامة لغوية بامتياز، وقد وجب علينا أن نبحث في الحوافز التي تتحكم في المؤلف وهو يضع أسماء لشخصياته (1).

إن الروائي ليس مجبرا على وضع أسماء شخصية لشخصياته، فبإمكانه أن يطلق عليهم ألقابا مهنية، (كالأستاذ والمقدم والخماس،...)، أو يعينهم بالفاظ القرابة، (كالأب، العم، الجد،...)، وبإمكانه أن يسميهم نسبة إلى مواطن إقامتهم، (مغربي، جزائري، فرنسي،...)، بل نجده أحيانا يطلق عليهم أسماء صفات أو عاهات تميزهم عن غيرهم (الأعرج، الأبله،...)، أو أسماء مجازية أبعد ما تكون في الدلالة عليهم، أو ربما ترك كل هذه الصفات، واستعمل الضمائر النحوية المختلفة، ووظفها للدلالة على الشخصيات في الرواية (2).

وعلى العموم، فإن معظم النقاد أصرروا على أهمية إرفاق الشخصية باسم يميزها ويعطيها بعدها الدلالي الخاص، وسبب ذلك أن الشخصيات لا بد أن تحمل اسما هو ميزتها الأولى، ذلك أن الاسم هو الذي يعين الشخصية ويجعلها معروفة وفردية. وقد يرد الاسم الشخصي مصحوبا بلقب يميزه عن الآخرين الذين يشتركون معه في الاسم نفسه، كما يزيد في تحديد التراتب الاجتماعي للشخصية الذي تخبرنا به المعلومات الروائية عن المظهر الخارجي وعن لباسها وطبائعها، لتدعيم تلك الفكرة التي يؤشر عليها الاسم الشخصي، بحيث

تتكامل المعلومات فيما بينها، وتقود القارئ إلى معرفة حقيقة هذه الشخصية (3). لقد لفت انتباهنا مؤشر الأسماء التي انتقاها الكاتب لشخصياته الروائية في رواية "حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر"، فمعظم الأسماء المسندة لشخصياته الروائية مخططة تخطيطاً فنياً دلالياً محكماً لا مجال فيه للصدفة أو المقاصد الاعتبارية التي تخضع لها الأسماء في الحياة العادية خارج العمل الروائي.

ومع أن البحث النقدي لم يكشف بعد عن الخصوصيات الإبداعية للكتابة الروائية عند "عز الدين جلاوجي"، فإننا نلاحظ أنه من أولئك الذين ينجزون "الخطوط المميزة" لأسماء شخصياتهم الروائية في إطار التصوير الكلي للعمل الروائي.

إن الاسم يفسر طبيعة الشخصية الروائية، ويفسر موقعها في السلم الاجتماعي، ويفسر منزعها الإيديولوجي، كما أن أسماء الشخصيات الروائية ليست منفصلة عن بعضها البعض، وإنما تأتي بوصفها علامات سيميائية مفتوحة على بعضها البعض، سواء كان ذلك من خلال علاقات التماثل أو من خلال علاقات المخالفة (4).

وفي سياق هذا التصور، يمكننا تفكيك أسماء بعض الشخصيات الأساسية في هذه الرواية، فـ "حوبة" تمثل دور "شهرزاد" ألف ليلة وليلة، لأنها تحكي أحداث الرواية، غير أن متلقيها هو الكاتب نفسه الذي يتلقاها ثم يكتبها، وهو مختلف عن "شهریار" متلقي حكايات "ألف ليلة وليلة"، فيقول: «حوبة هي شهرزادي التي ظلت مدى السنوات الطوال تزرع نفسي القاحلة بحكاياتها الجميلة فتحيل صحرائي إلى جنتين من أحلام وآمال، وإن تكن هي شهرزادي فأنا لست شهریارها، لأنني كنت أمامها كالطفل الوديع الذي ينام حالماً بمجرد أن تدغدغ الحكاية أحلامه الصغيرة» (5)، ويقول في نهاية الرواية: «انسحبنا عائدين يلفنا الصمت، وتحلق بنا خيالات تسترجع أحداثاً جلية وقعت ذات سنوات في هذا الوطن الغالي، وحمدت الله أن حوبة قد نقلتها رواية، وكان لي فضل تدوينها حتى لا تضيع من الذاكرة، فليعنا التاريخ والأجيال القادمة» (6).

وفي "القاموس المحيط"، ورد الحوب، والحوبة: الأبوان، والأخت، والبنات، ولي فيهم حوبة وحوبة وحبيبة، قرابة من الأم، والحوبة، رقة فؤاد الأم، والهمل والحاجة، والحالة كالحبيبة، بالكسر فيهما، والرجل الضعيف، ويضم،

والأم وامرأتك، وسرّيتك، والدابة، ووسط الدار، والحب، الحزن والوحشة، ويضم فيهما، والفن والجهد، والمسكنة، والنوع، والوجع والحُب بالضم: الهلاك، والبلاء، والنفس، والمرض، والحباء: النفس،...⁽⁷⁾. ف"حوبة" من خلال هذه التعاريف، هي شخص قريب من الكاتب الذي يتلقى قصصها، فهي الأم والأخت والحببية التي عبر عنها بقوله:

أه...

ليتنا يا حوبتي غيمتان
تلهوان على أرجوحة الريح في أمان
تسبحان في لجة السماء وتضحكان
وفي المساء يا حبيبتي
نسقي شفاه الأرض
عشقا وحنان
ليتني يا حلوتي غيمة كالملاك
تناغيني الحكايا في حضن علاك
أنام كطفل رضيع
وفي فمي:
أهواك أهواك (8)

كذلك ورد في "القاموس المحيط"، أن الحوب هو الحزن والوحشة، وهذا ما يطابق عنوان البوح الأول: "أنات الناي الحزين" (9). وما تحكيه "شهرزاد" وتبحث عنه مختلف تماما عما ورد في عنوان الرواية الذي هو "حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر"، لأن اسم "المهدي المنتظر" يرد في بداية الرواية، ثم يختفي تماما، «أنا لا أومن بالمهدي المنتظر، هو مجرد خرافة رسمه خيال العامة المنهزمين تعلقا بأمل، سيشرق يوما ليهزم ظلماتهم، لكن حوبة تؤمن به وتنتظره بشوق كبير، وتظل تحكي عنه دون ملل أو كلل» (10).

فالمهدي المنتظر الذي سيظهر في نهاية الزمان، ويملا الأرض عدلا وقسطا، بعد أن تكون مملوءة ظلما وجورا، فيرضى عنه كل من في السماء والأرض، جاء بمثابة افتتاح المسار السردي، رمز به الكاتب إلى ما تهدف إليه حوبة من بحث وشوق لمعرفة جرائم المستعمر الفرنسي ضد هذا الوطن، وما

بذل أبنائه من جهود لتحريره، ولعل تحرير هذا الوطن من قيود المستعمر الفرنسي هو الذي أراده الكاتب بالمهدي المنتظر، لأن المستعمر يمثل الظلم والجور، أما الاستقلال والتحرر فيمثلن المهدي المنتظر الذي سيحرر الناس من الظلم، وكذلك يشير إلى الظلم الذي ألحقه "القايد عباس" بالناس، وهو ظلم شديد وقاس، ثم يأتي "العربي المستاش" و"خليفة" ليحررا الناس من ظلم هذا الرجل.

والكاتب من الذين يؤمنون أن أفضل العناوين ما كان مستفزا للقارئ، حتى إذا بدأ في تتبع أحداث الرواية تصادم أفق انتظاره مع ما كان ينتظر تحقيقه من خلال هذا العنوان.

وينطلق الكاتب في وصف "حوبة" حين تحكي، فيقول: «وحوبة حين تحكي تكون كالعين النضاجة، تنبجس الحكاية من كل جوارحها وجوانبها، فهي تشبه عيون مياها، وحقول قمحنا، وطيور الكروان الحالمة في ليالي صيفنا، عيناها الكحلوان الواسعتان تتوسد شواطئها النوارس الحالمة، وتقفه على رملها الناعم أمواج حوريات البحر، وحين تبسم حوبة تشرق شمس من درر لماعة حتى لتخال نفسك قد عثرت على كنز من كنوز السندباد، وأنفاس حوبة نسيم ربيعي يحمل إليك شذا الهضبات وعبق التلال» (11).

وتفتتح حكايتها كما افتتحتها "شهرزاد" في "ألف ليلة وليلة"، فتقول: «بلغني أيها الحبيب السعيد، ذو العقل الرشيد أنه» (12)، على طريقة حكايات "ألف ليلة وليلة"، لما يؤذن الملك لشهرزاد أن تحكي، فتتقدم للحكاية قائلة: «بلغني أيها الملك السعيد أنه...» (13).

إن الرواية تتداخل مع حكايات "ألف ليلة وليلة" بشكل كبير، فـ "حوبة" و"شهرزاد" قاسم مشترك بين العمليين، وموضع التلاقي بينهما، غير أن هذه الاختلاف بين "حوبة" و"شهرزاد"، أن هذه الأخيرة كانت مجبرة على الحكى، لأنه يمثل الحياة بالنسبة إليها، للنجاة من الملك "شهريار" الذي يمثل الملك والزوج والجلاد في الوقت نفسه، بينما "حوبة" تحكي لشخص ليس "شهريار" الجلاد، بل لشخص هو «كطفل وديع ينام بمجرد أن تدغدغ الحكاية أحلامه الصغيرة» (14). فحوبة تحكي شفها لهذا المتلقي، حيث تمثل نقطة التقاء مع "شهرزاد" في السرد الشفهي، لكن هذا المتلقي يتحول إلى مدون لما تحكيه حوبة، ويمكن أن نعتبره ساردا من الدرجة الثانية.

وسوف نتعرض بعد ذلك لأسماء الشخصيات التي لفتت انتباهنا في هذه الرواية، ومن بينها: **حمامه**، ومعناها الطائر، ويكنى بالحمامة عن المرأة، ومن معانيها المرأة الجميلة⁽¹⁵⁾، وفي "القاموس المحيط": الحمامة كسحابة: وسط الصدر، والمرأة، أو الجميلة، وخيار المال، وسعدانة البعير، وساحة القصر النقية، وبكرة الدلو، وحلقة الباب⁽¹⁶⁾، ويبدأ وصف حمامه في الرواية، على لسان "العربي" الذي كان يترنم بأبيات "ابن قيطون" حالما بحمامه:

خدها ورد الصباح

واقرنفل وضّاح

الدم عليه ساح

وقت الضّحوا⁽¹⁷⁾.

كانت هذه الأبيات كبدائية لوصف جمال حمامه، ثم يلجأ بعد ذلك إلى الوصف المباشر، «وقد صارت أحلى من جبن الرعاة، امتدت قامتها ونهد صدرها، وزادت كحولة عينيها، إنها أشبه بمهرة عربية، حين وضعت الصدينية تدلت ضفيرة شعرها الأسود تسبقها إلى الأرض»⁽¹⁸⁾.

وكذلك في حديثه عن "القايد عباس" الذي يرغب في الزواج من حمامه، فيقول الكاتب: «كان أكبر همّه أن يتزوج حمامه، وقد وصلتته أخبار عن جمالها الفتان، وهو حين يعجب بامرأة لا يقتل من أجلها واحدا فحسب أو عشرة، بل هو مستعد أن يبني قبيلتها جميعا»⁽¹⁹⁾.

ويعود كذلك إلى الحديث عن حمامة عن طريق "العربي" الذي هو شخصية رئيسية في هذه الرواية، ليصف حمامه حين تتراقص في خياله، فينطلق مغنيا بشعره:

عندي حمامة ترن في برج عالي

حرق قلبي وشغلت لي بالي

صوتها لحن مشكل لالي يا لالي

مشيتها حجلة تثير دلالي

وقلبها باهي وحلو كعنفود الدوالي

عينها سوده مذبالة غيرت احوالي

وسنها جوهر مرتب يلمع ولالي

يا ربي داوي لجراح واكشف هوالي⁽²⁰⁾.

وهذا وصف آخر للبرّاح الذي يستقبل النقود من الناس في ليلة العرس، بكلام مسجوع قائلاً: «بات يا زرناجي بات، وهذه عشرون ألفاً أخرى من العربي الزين، أسود العينين، كريم اليدين، يعطيها بدل خطيبته حمامه، حمامه غزالة في الصحراء، نجمة في السماء، حمامه ينبوع الماء، نسمة الهواء، حمامة بنت العريان، بنت الشجعان، والموت لكل حسود، والموت لكل حقود» (21).

إن شخصية "حمامه" تعد من أهم الشخصيات الروائية في هذه الرواية، وهي تشغل قسماً كبيراً فيها، وتحتل مساحات واسعة في الرواية، ويمكن اعتبارها النواة التي تأسست عليها أحداث الرواية، ولهذا تأتي أهمية دلالة اسم "حمامه" الذي ارتضاه الكاتب دون غيره، لأنه عادة ما يطلق هذا الاسم على كل امرأة جميلة، فحمامه بالنسبة للعربي هي الماضي والحاضر والمستقبل.

ونلاحظ هنا نوعاً من المبالغة في وصف جمال "حمامه"، بدليل قول حوبه للسارد: «لم يعجبني اهتمامك الكثير بالشخصيات النسوية ولا وصفك الدقيق لها، حتى سلافة الرومية شغفتك حبا، أنت تعرف غيرتي» (22).

غير أن الكاتب في الحقيقة كان يرى في "حمامه" صورة من "حوبة" الحبيبة وفرعاً منها، كما يؤكد ذلك في قوله: «لقد أكدت لي حوبه قبل بدء الحكاية أنها موجودة داخلها، هل هي فرع من حمامه؟ لست أدري لماذا كنت أراها كذلك؟ ولست أدري لماذا كلما ذكرت حمامه تبدت لي ملامح حوبه؟» (23)، ممّا يعني أنّ "حوبه" في الحقيقة ما هي إلا "حمامه".

إن التحولات الطارئة على اسم الشخصية تأتي غالباً مصحوبة بتفسير للدوافع والبواعث التي أدت إلى التحول، وتكون تلك التفسيرات في معظم الأحيان عبارة عن ملفوظات حكاية ينظمها قانون السبب والنتيجة، ولكي لا يحدث تشويش في ذهن القارئ جراء تغيير اسم الشخصية، يجب استدعاء عبارات مقبولة خاصة تستعمل لغرض تبرير تحول الاسم وبيان الأسباب الكامنة وراء حدوث ذلك (24).

وهذا ما نلاحظه في اسم "العربي" الذي يتحول من "العربي" إلى "العربي المقرون" إلى "العربي المستأش"، ففي البداية يصفه وصفاً خارجياً، يتعلق بالمظهر والهيئة،

كالطول والقصر، في قوله: «كان يجلس العربي مجللاً بصمته، ممتد القامة، أميل إلى النحافة، أسمر اللون، حاد الأنف، أسود العينين، رقيق الشفتين، كث الشارب، يفضل العزلة، لا شيء يشغله غير حمامه ودم أبيه، ينكأ جرحه في أعماقه» (25).

فهذا الوصف يجمع بين الخصائص الجسمية المتمثلة في الطول والقصر، والنحافة، ولون العينين، والشفثين، وغير ذلك، وبين الخصائص النفسية، كحبّه للعزلة، وكثرة صمته، وأعماقه الجريحة، وعزمه على رد الثأر، بالإضافة إلى الحب والعطاء والصبر، واحتقار الظلم والظالمين، وإحساسه المرهف بكلّ ما يحيط به، أي أنه يجمع بين الملامح البيولوجية وبين مزاج الشخصية وانفعالاتها وسلوكها.

بالإضافة إلى ما يحمله اسم "العربي" في حدّ ذاته من دلالات تشير إلى ما للإنسان العربي من صفات الشجاعة والكرم المعروفة.

ثم يضيف له صفة أخرى، بقوله: «ويقوم بطقوس غريبة حتى سمي العربي المقرون» (26)، وقد تضمن كلامه هذا هامشاً يشرح فيه معنى المقرون، فيقول: «والمقصود به المجنون، صاحب التصرفات الغريبة، ولعلمهم أخذوا ذلك من قرن أي نبت له قرن، كناية عن عدوانيته، أو من كان له قرين من الجن» (27).

وبمجرد أن يصل العربي إلى مدينة سطيف، يتغير اسمه إلى "العربي المستاش"، وهو اسم أطلقه "سي رابح"، صديقه الجديد الذي تعرف عليه في المدينة حين هرب مع "حمامه"، فيقول عن "سي رابح": «وهو يصر على وصف العربي بالمستاش يضيفها إلى اسمه في كل مرة، ولم يجد العربي حرجاً في ذلك، بل وجد فيه متعة، المستاش أو الشاربان رمز للرجولة والنضج» (28).

ثم يضيف إليه صفة الخيانة، بحبه لـ "سوزان" زوجة "فرانكو" الفرنسي، سيده الذي كان يعمل عنده في الحقل، وبعد ذلك إعجابه بـ "وريدة المرقومة". هذا، ويمكن أن تتعدد التغيرات التي تلحق اسم الشخصية إلى الحد الأقصى، ورغم أن "حسن بحراوي" يشير إلى أن هذا التغيير قد يشكل خلافاً أساسياً في تراحم السرد ومقروئيته، على أساس أن النص الذي تتغير فيه علامات

الشخصيات بين عبارة وأخرى لا يمكنه أن يكون نصا مقروءا (29)، إلا أن هذه التغييرات في الاسم هي إضافات له، لأن الكاتب كان يقدم هذا التغيير في كل مرة، مبرزاً تطور الأحداث، فلم يمنع ذلك من حصول فاعلية هذه الشخصية في السرد والأحداث.

لقد سبق أن أشرنا في البداية إلى أن الكاتب قد يطلق على شخصياته أسماء صفات أو عاهات تميزهم أو تجعلهم مختلفين عن غيرهم، كما حصل مع "عيوبه" الذي يمكن أن يفهم القارئ مباشرة أنه سمي كذلك لعيب فيه، لأن هذه التسمية لم ترد اعتباطياً، وهذا القارئ سوف يتأكد من ذلك عندما تبدأ أحداث الرواية في التطور، ويتوسع الحديث عن الشخصيات، فنعرف أن "عيوبه" سمي بهذا الاسم لعاهة مصاب بها، كما يظهر في هذه العبارة، «نهض الزيتوني وفي نفسه غضب حارق، ومدّ يده وأوقف عيوبه وجره إلى البيت، كان عيوبه يعرج خلفه ويمسح أنفه الغليظ وعينيه المحمرتين بكّمه الأيمن» (30)، وقوله: «نظر سي الطالب إلى عيوبه، مركزاً على عرجته، وأراد أن يقول إن هذا لا يصلح للشهادة قياساً على الشاة المعيبة لا تصلح للأضحية، لكنه كتمها ولزم الصمت» (31)، وقوله: «وهو رغم عرجته لا يستعمل العصا أبداً» (32).

والملاحظ هنا أن هذه الشخصية لا تحمل اسم علم عيني خاص بها، وإنما تحمل اسم عاهة تميزها عن غيرها، وهي تلك المشية العرجاء، ولهذا سماه الكاتب "عيوبه"، بالإضافة إلى ما أسبغ عليه من أوصاف أخرى، بكونه فَـقَدَ أبويه صغيراً، ثم كفله ابن عمه (أبو حمامه)، ثم كفله عمه "بلخير" (والد العربي)، والذي منحه مكانة أكبر من مكانة أولاده (33). إلى جانب "وريدة المرقومة" التي وصفها الكاتب وصفا خارقاً، مبالغاً فيه، حتى صار يضرب المثل بجمالها، وصارت فتنتها على كل لسان، فيقول الكاتب في وصفها: «وأُطلّت وريدة المرقومة من الباب وقد تهدّلت شعرها الأسود حتى كاد يغطيها، وبدت رقبتها البيضاء ممتدة كدرب التبانة، وبدا صدرها النّاهد هدية نازلة من السماوات العلى» (34).

ولهذا سميت بالمرقومة، مع إضافة اسم "وريدة"، وهو تصغير لـ "وردة"، دلالة على أنها كانت في جمالها كالوردة، مما يعني أن الكاتب مولع كثيراً بالجمال. وكذا "حدّة المخرومة" التي سميت بهذا الاسم نتيجة لعاهة تحملها في أنفها، غير أن هذه العاهة ليست أصلية فيها،

وإنما ناتجة عن حادثة، بحيث كانت عاهرة في ماخور مدينة سطيف أو دار الفساد كما يسميها الناس، وكان الرجال يتدافعون عليها ويتناطحون حولها كالمجانين، فاشتدت غيرة عشيقها "عزوز"، فكسر أسنانها وخرم أنفها بخنجره، ثم غرز خنجره في قلبه أمام الملاء، لأنه لم يكن يريد لها إلا لنفسه (35).

كما أن هناك اسما آخر في الرواية يعبر عن المكانة الاجتماعية، وهو اسم "القايد"، الثلاثي المتمثل في (سعيد الأب، وعبّاس الابن، وجلول الحفيد)، هؤلاء الذين توارثوا القيادة أبا عن جدّ.

ويوضّح الكاتب معنى "القايد" في الهامش، بأنه لفظ تنطقه العامّة بالياء بدل الهمزة، وهو إعلال معروف في العربية للتخفيف، والقايد رتبة تركية كانت تعطيها فرنسا لبعض أتباعها، جمعها قيّاد، والأصل فيها قواد، فقلبت الواو ياءً، لتناسب كسرة القاف (36). والملاحظ هنا أن "القايد عبّاس" هو الأكثر حضورا في الرواية، وأكثر حضورا على مستوى الأحداث، والأكثر خطورة في الوقت نفسه، نتيجة الظلم والقهر الذي كان يمارسه على الناس، كقتل الكثير من الأبرياء، من بينهم "بلخير" والد "العربي الموستاش"، وهو عم "عيّوبه"، وقاتل "الريح" زوجة "خليفة"، وغير ذلك من الجرائم التي ارتكبتها.

و"القايد عبّاس" يمثل السلطة العسكرية التي لا تقاوم، بمساعدة "حميدة" الذي هو بمثابة الذراع الأيمن له (حميدة القتال وعبّاس السّفاح) (37)، و"القايد" عبّاس" عميل لفرنسا ومخلص لها، ويظهر ذلك فيقول الحاكم الفرنسي: «الأمة الفرنسية أمة عظيمة، وأرضها لا تغرب عنها الشمس، وستجازي خيرا كل من يقف معها ويخلص في خدمتها، وضرب مثلا بالقايد عبّاس في إخلاصه وتفانيه، ووعد برفع مرتبته وتقديم الدعم له، وماذا يمكن لهم أن يضيفوا إليه؟ هو لا يحتاج إلا أن يكون مسؤولا عن باقي العروش أيضا، خاصة أولاد سيدي علي، ليقمع عنفوانهم الزائد، ويقمع كل رغبة عندهم في الثورة والتمرّد والانتقام» (38).

فبينما يضيف الكاتب للقايد الأول صفة السعادة (سعيد)، وللثاني صفة الجلالة (جلول)، فإنه يربط القايد الثاني بالعبوس (عبّاس).

ف "سعيد" معناه مسرور، من السّعد: اليمّن، وسعيد نقيض شقي- وسعيد من أسعده الله، وسعيد المزرعة: نهرها الذي يسقيها، وكأنه يسرّها ويسعدها، والسّعيد: النهر الصغير (39).

أما "جلول"، فهو من الجلال والعظمة، والجُلَى: الأمر العظيم، وقد جاءت بهذا الشكل (جلول)، دلالة على المبالغة، مما يعني أن الكاتب أراد أن يعبر عن سعادة "القايد سعيد" بمكانته، بينما يعبر بالتقيض عن "القايد جلول"، لأن صفة الجلالة لا تليق بمنهج هذا الشخص، لأنه صورة عن أبيه "القايد عباس" وأفعاله الذميمة، وبالتالي فدلالته الظاهرة مفارقة تماما لطبيعة وموقع ورؤية ووظيفة الشخصية التي تحمله من منظور الروائي داخل النص، وبالتالي فالكاتب منحه هذا الاسم لجعله محل سخرية، وإمعانا في التزكية المفرغة من الجلال.

غير أن الكاتب يشاء أن يكشف عن شخصية القايد الثاني بصفة مباشرة، بعد أن يضيف إليه اسم "عبّاس"، ذلك أن معنى عبس: قطّب ما بين عينيه، والتعبس: يعني التجهّم، والعباس الأسد الذي تهرب منه الأسد (40).

إذ يعمد الكاتب إلى الفضح المباشر لشخصية "القايد عبّاس"، على عكس شخصيتي "سعيد" و"جلول" اللتين افترضتا بطريقة غير مباشرة، وهذا ما يدل عليه وصف "القايد عبّاس" في الرواية: «كان القايد عبّاس مهيب النظرات، ممثلي الجسم ممتد الطول، تملأ وجهه لحية يكاد يغطيها شارباه الكثان، يميل شعره إلى الحمرة، وكان أباء عرشه يطلقون عليه مذ كان صغيرا لقب الأزعر، وكان هو يعتدّ بذلك ويتمايل فخرا وهو يعتمر العمامة الضخمة وقلمونة البرنس الأحمر» (41).

وهذا يعني أن اسم "القايد عبّاس" يمكن أن يجمع كل من الدلالة البيولوجية المتمثلة في الصف الخارجي لهذه الشخصية، والدلالة النفسية المتمثلة في تكبره وفخره واعتداده بنفسه، بالإضافة إلى الدلالة الاجتماعية التي يحملها اسم "القايد" التي تندرج في منظومة الأسماء والكنى ذات المواقع الاجتماعية المتوارثة التميز والامتياز، فهو مركب من اسم فاعل "قايد" و"عبّاس" على وزن فعّال، أي على وزن "الفاعل الفعّال"، وهو اسم متشاكل مع الأشياء والنظائر الكثيرة له في أعراف المجتمع.

فاسم "القايد" ورد مصحوبا بثلاثة أسماء شخصية، لكي يتميز كل واحد منها عن الآخرين الذين يشتركون معه في الاسم نفسه، إضافة إلى تحديد التراتب الاجتماعي الشخصية التي تخبرنا عنها المعلومات في لرواية، وقد تم تدعيمها بالصفات الخارجية، لكي يقدم لنا الكاتب صورة متكاملة عن هذه

الشخصيات، ذلك أن «المعلومات التي يقدمها الروائي عن المظهر الخارجي للشخصية وعن لباسها وطبائعها وحتى عن آرائها تأتي كلها لتدعم تلك الوحدة التي يؤشر عليها الاسم الشخصي، بحيث تشكل معها شبكة من المعلومات تتكامل مع بعضها البعض وتقود القارئ في قراءة الرواية» (42).

هذا، بالإضافة إلى أن "القايد عباس" ينتمي إلى "أولاد النش"، أي عائلة المشاكل والصراعات والخصومات، على عكس "العربي المستاش" الذي ينتمي إلى "أولاد سيدي علي"، الشرفاء والكرماء، قياساً على معنى "علي" الذي يعني «الرفيع-عالي الشأن- وتعالى: ترفع-ورجل عالي الكعب: شريف عالي الذكر-وفي الحديث: اليد العليا خير من اليد السفلى-ورجل علي أي شريف» (43)، ممّا يعني أن "أولاد النش" هم سفلة وحقرة، بينما "أولاد سيدي علي" هم الأعلى قيمة وشرفاً.

كما يمكن الإشارة إلى شخصية "البهلي لخضر"، وهو من أولياء الله الصالحين، «أو المرابط كما يسميه الناس» (44). والبهلي تعني، «الدرويش الزاهد في الدنيا، وقد يطلقون عليه اسم المرابط أيضاً، ولعلها في الفصحى من لفظة الباهل أو البهلول» (45).

أما الأخضر، فهو من الخضر-صار أخضر، وسمي الخضر بهذا الاسم لحسنه وإشراق وجهه تشبيهاً بالنبات الأخضر الغض، وأخضر هو تصغير لأخضر، والعرب تقول: الأمر بيننا أخضر: أي جديد (46)، ويشاء الكاتب أن يجعل حتى مندبل "البهلي لخضر" أخضر، فيقول: «وقد تدلّى من صدره مندباً أخضر طويل يستعمله لتنظيف فمه وأنفه» (47). وبما أن هذا الرجل من أولياء الله الصالحين، فقد أتاه الله العلم الربّاني الذي يأتيه من الغيب، هذا العلم يقدمه للناس كإشارة، وعليهم أن يفكوا رموزه لفهمه، ومن أجل ذلك التيسر على الناس التناقض الواضح في كلامه، حين يتحدث عن الظلم والظالم، المتمثل في شخص "القايد عباس"، ثم يرفع صوته متجهاً إلى السماء مشيداً بشخص يبدأ اسمه بالعين، مما يجعل المتلقي يحترق لذلك، سواء كان هذا المتلقي داخل نصي أو خارج نصي، ويظهر ذلك في أقوال "البهلي لخضر":

«النار تأكل الظالم، الظالم يطغى ويزيد، ضربة الله تضرب مرة لا تعيد، الأرض عطشانة، دما يرويهها، قلوبنا خربانة غلّا يسقيها» (48).

ثم يصمت، وبعدها يرفع صوته متجهاً إلى السماء، فيقول:

«يا ناس يا ناس، هو سيد الناس يرفع الباس، ويعلي الرأس، اسمه بالعين بيدا، والنفوس له تهدا، يرفع راس بلادنا ويعز نفوس أولادنا» (49).

لقد وظف الكاتب شخصية "البهلي لخضر"، وهو شخص محاط بالغموض، ولا يكفي ما هو ظاهر لإيضاحه، بل فهمه يستدعي العودة إلى الباطن الذي يخفي أسراراً كثيرة، وتتشابه قصة "البهلي لخضر" إلى حد كبير مع قصة "موسى مع الخضر" الواردة في القرآن الكريم، حيث الخضر هو الآخر رجل صالح، آتاه الله العلم اللدني، فلما رافقه "موسى" -عليه السلام- لأخذ من علمه، راح يقوم بأعمال بدت في ظاهرها أعمالاً إجرامية، ولكنها في حقيقتها كانت تفسيراً لما يحتويه علم الباطن من خفايا وأسرار لا يفهمها الإنسان العادي، وكذلك ما كان يردده "البهلي لخضر" من كلام يبدو في ظاهره متناقضاً، هو أيضاً في الحقيقة لا يمكن تفسيره إطلاقاً من خلال الظاهر، ولهذا اقتبس الكاتب اسم "الخضر" من "الخضر" للدلالة على التشابه الواضح بين الشخصيتين اللتين تمتلكان العلم الرباني الآتي من الغيب. غير أن الفرق بين "خضر موسى" و"البهلي لخضر" في هذه الرواية أن "الخضر" يقدم تأويلاً لأفعاله في نهاية القصة، أما "البهلي لخضر" فيقتل قبل أن يكشف لنا حقيقة كلامه، وقد تعتمد الكاتب ذلك، لإعطائه فرصة للمتلقي أن يقوم بنفسه بعملية التأويل، تماماً مثل الشخصيات التي لم نعرف مصيرها في الرواية، ومن بينها: (سوزان، وحليمة، ووريدة المرقومة، وحدة المخرومة، ...).

وإذا استطعنا أن نفسر هذه الأحداث في علاقتها بأحداث سابقة، أمكننا إزالة الغموض المحاط بتلك الشخصية، واستعدنا وضوحها بتفسير جملة التحولات التي تلحق بها من جراء التقلبات التي تكون عرضة لها في المتن الروائي، والتبريرات المختلفة المعطاة لتسوية ذلك التحول والتناقض الظاهر.

وخلاصة القول، إن الكاتب وظف الشخصيات والأحداث التاريخية بعبقريّة خارقة، وأدخل عليها خيالاً خصباً، ساعده في ذلك أسلوبه الجميل ولغته الراقية، وقدرته على التعبير وتجسيد الأحداث، وإحاطته بثقافات مختلفة، موظفاً أنواعاً عديدة من الشخصيات، منها العربية والأجنبية والتاريخية والدينية، وغيرها. كما أنه فكر في رسم أسماء شخصياته بدقة محكمة، قصد تحقيق الحد الأقصى من المقروئية للرواية، ولأن ذلك يدخل ضمن واجباته تجاه العالم التخيلي الذي ينشئه.

الهوامش:

- 1- ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، - الفضاء، الزمن، الشخصية-، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط1، 1990، ص 247، نقلا عن: Phllipe hamon, pour sttut sémiologique du personnage, p 134.
- 2- ينظر: حسن بحراوي، المرجع نفسه، الصفحة نفسها.
- 3- voir : charles grivel, production de l'interect romanesque, ed mouton, 1973, p 120.
- 4- ينظر: عثمان بدري، قم ونماذج من الأدب العربي الحديث، دراسات تطبيقية، منشورات ثالة، الجزائر، 2001، ص 103.
- 5- عز الدين جلاوي، حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، دار الروائع للنشر والتوزيع، سطيف، الجزائر، ط1، 2011، ص 11 .
- 6- المصدر نفسه، ص 556.
- 7- ينظر: مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ضبط وتوثيق: يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1425-1426 هـ / 2005 م، ص 72.
- 8- عز الدين جلاوي، حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص ص: 12-13 .
- 9- م ن، ص 9.
- 10- م ن، ص 11 .
- 11- م ن، ص ن.
- 12- م ن، ص 13.
- 13- القصص الشعبي، ألف ليلة وليلة، المجلد الأول، الجزء الأول، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط 10، 2004، ص 12 .
- 14- عز الدين جلاوي، حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص 11.
- 15- ينظر: أحمد الجدع، معاني أسماء الصحابييات، دار الضياء، عمان، الأردن، 1997 م، ص 38 .
- 16- ينظر: الفيروز آبادي، القاموس المحيط، ص 990.
- 17- عز الدين جلاوي، حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص 20.

- 18- م ن، ص 28 .
- 19 - م ن، ص 37 .
- 20 - م ن، ص 40 .
- 21 - م ن، ص 117 .
- 22 - م ن، ص 132 .
- 23 - م ن، ص ن .
- 24- حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص 257 .
- 25- عز الدين جلاوي، حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص 59 .
- 26- م ن، ص 60 .
- 27- م ن، ص ن .
- 28- م ن، ص 145 .
- 29- ينظر: حسن بحراوي، بنية الشكل الروائي، ص ص : 258-259، نقلا عن:
43Phllipe hamon, pour sttut sémiologique du personnage, p 1
- 30- عز الدين جلاوي، حوبه ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص 67 .
- 31- م ن، ص 104 .
- 32- م ن، ص 252 .
- 33- ينظر: م ن، ص 103 .
- 34- م ن، ص 245 .
- 35- ينظر: م ن، ص 244 .
- 36- ينظر: م ن، ص 31 .
- 37- م ن، ص 42 .
- 38- م ن، ص 84 .
- 39- ينظر: حسن نور الدين، الأسماء العربية، معانيها ومدلولاتها، دار الحكايات للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط 1، 1425هـ/ 2004 م، ص 173 .
- 40- ينظر: المرجع نفسه، ص 249 .
- 41- م ن، ص 51 .
- 42- charles grivel, production de l'interect romanesque, p 120

- 43- حسن نور الدين، الأسماء العربية، معانيها ومدلولاتها، ص 268
- 44- عز الدين جلاوي، حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص 80 .
- 45- المصدر نفسه، ص 38 .
- 46- ينظر: حسن نور الدين، الأسماء العربية، معانيها ومدلولاتها، ص 19.
- 47- عز الدين جلاوي، حوبة ورحلة البحث عن المهدي المنتظر، ص
- 48- م ن، ص ن.
- 49- م ن، ص ن.